اطيب ساعة قضيتها في مراكش

مقالة ممتعة كتبتها البحاثة « هنريت سلارية » على اثر سياحتها في بلاد مراكش وفيها تصف الضيافة الفاخرة التي حظيت بها في دار قائد مدينة « مولاي ادريس » الشريفة وتورد ما سمعته من العلماء والفقهاء في خصوص المرأة . فلخصنا منها ما مؤداه :

قائد مدينة « مولاي ادريس » شريف بكل معنى الكلمة ، قد فطره الخالق على اللطف والكرم والشهامة واجزل له هبات العلم والحكمة ؛ تلطف باستقبالنا وملء فمه الابتسام والدعاء بالخير وادخلنا داراً قوراء مزخرفة على الطراز القديم ... ويا ما ابدع رحبتها واروقتها وعواميدها وفسقيتها مع مائها الخرار ! ان الخرير يلذ سماعه للمراكشيين وبدونه لا يطيب لهم عيش ، وقد سمعتهم يقولون : «اذا انقطع الخرير عبس وجه الدار وكلح »

ثم فتح لنا القائد باب قاعة طويلة في وسطها ما يسمونه « بالبهو » فدخلناه وعجبنا مما حوله من الفروش والنضائد الفاخرة المعدة للجلوس. فوضعوا لنا فوق الفرش وسائد بها ارتفعت المجالس، فجلسنا، ثم صفوا وراء ظهورنا وسائد فاتكأنا بمزيد العظمة ، كاننا على ارائك الملوك . وجال هنالك في خاطري ان كراسينا الاوربية ليست بالنظر الى تلك المقاعد سوى آلات عذاب . وسرحت نظري في نقوش الحيطان

وباطن السقف فخار لبي لبهجة رسومها المتلونة المتقنة . وبقيت ابواب البهو والقاعة مفتوحة تنظر منها الى ساحة الدار وقد ساد فيها الهدو والسكون ، ومما جلب انتباهي ان كل ما في الدار مهيأ لراحة الروح والجسد وتنعم العيون . . . .

ودعا رب البيت فريقاً من فضلاء جيرانه لمجالستي ومناظرتي في الحياة الاجتماعية المغربية لعامه اني مغرمة بالبحث فيها . فدخلوا واحداً واحداً يصافحون القائد مقبلين كتفه ، وفي مقدمتهم القاضي والفقيه والمدرس وناظر الاوقاف

اما القاضي فهو في عنفوان الرجولة ينبعث نور الذكاء من عينيه وتقرأ على سيمائه آيات الرصانة والوقار. والفقيه شيخ جليل مشهور في عالم العلم والادب . والمدرس فتى ظريف ، متوقد الفؤاد ، واسع المدارك ، سليم الذوق . واما ناظر الاوقاف فسمين بطيء الحركة لكنه خفيف الروح ، طيب الحديث اذا تكلم ساعة حسبها السامع دقيقة واحدة

وبعد ان تجاذبنا اطراف الحديث مدت مائدة الضيافة وهي الشيء المهم عندهم ؛ فجلسنا حولها ، وصاحب البيت واقف ينظر ويلاحظ لان العادة المألوفة هناك ان يتولى رب البيت ادارة الضيافة فلا يجلس مع ضيوفه الا اذا الحوا عليه بالطلب. فسألته الجلوس الى جانبي فرضي

وعند انتهاء حفلة غسل الايدي ، وتوزيع المناشف كشفوا الغطاء

عن الصحفة الاولى واذا فيها غشاء من الخبز الرقيق مرشوش فوقه السكر ومرصع بحبات الزيب ومطيب بعطر الورد. فدعوني ان امد يمناي الى الصحفة قائلة بسم الله... فاطعت وكسرت الغشاء بثلاث من اصابع يدي طبقاً للاصول المرعية ، فبرزت من تحته فراخ الحمام المقلية وحولها الخرشوف والجزر والزيب . فلذ لي طعمها على غرابته ، اذ انهُ جمع بين حلاوة السكر ، وطيب الورد ، وملوحة الملح ، وحرافة الفلفل الاحمر . وبعد اللحوم، قدمت اطباق الحلوى المتنوعة الغريبة الاسماء ومنها قرون الغزال ؛ وعمائم السلاطين وغيرها ؛ وكلها على غاية الاتقان والذوق

وعند الفراغ من الاكل والغسل بخرونا بالعود والصندل ، ثم رشوا علينا ماء الورد وزهر البرتقان ؛ وعدنا الى مجالسنا فادار وا علينا الشاي في اقداح مذهبة . ثم اشار القائد الى ذويه فادخلوا علينا ابنةً له لا تتجاوز الخامسة من عمرها . فاخذتها في حضني اقبلها وهي تقبل يدي . فقلت لها :«اما تجيئين معي الى اوربا ؟» فنظرت الي والى والدها محملقة وقالت :« لا، لا، انا هنا عند ابي» ! وتركت حضني وفرت الى حضن والدها .فصحت «بالله عليك ياحياتي لا تهربي مني.» قالت :«انا لا اخرج من بيت والدي. واي مكان احسن من بيتنا ؟» قلت:«أجل لا مكان احسن من داركم؛ ولكن ...» فقاطعتني قائلة: « انا لا اخرج

ابداً من بيت ابي » . ثم قبلت يد والدها ورجعت الى دائرة الحرم

فقلت لوالدها : « لابد انكم تعلمونها القراءة والكتابة فانها ذكية جداً . ويا اسفي عليها ان لم تنل التهذيب ! »

قال القائد : « انها ستناله ان شاالله تعالى. واعلمي ايتها الفاضلة ان الفتاة الذكية عندنا تقدر ان تكتسب التهذيب وشرف الاخلاق واليهما تسمو نفسها، فاننا نعظم شان المرأة المهذبة ونفضلها على كل من سواها. واسمحي لي ان اقول ان اغلب الاوربايين يسيؤون الظن بنا في خصوص معاملتنا النساء ويتوهمون اننا نحسبهن دون الرجال ، والحال اننا نعتبرهن مساويات لنا »

قال الناظر : « اذا كانت النساء ذكيات فهيمات، أضحين مستشاراتنا ، ومستودع اسرارنا ، وشريكاتنا في آرائنا واحكامنا ؛ فلا يقدم احدنا على امر دون ان يستشير زوجته »

فقلت له ابتغاء سوقهِ الى الاسترسال في الحديث : « ولكن كيف ينطبق كلامك على المثل السائر عندكم وهو : « دع المرأة تتكلم واعمل عكس ماتقول ؟ . . »

فقاطعني الفقيه وقال: « اسمعي ايتها الفاضلة، اننا هنا الآن كثيرون ولا احد يعارضني اذا قلت انك لا تقدرين ان تجدي في مدينة مولاي ادريس رجلاً واحداً يستبد في اموره ، انما المرأة تدير الامور معه .

فوافق الجميع على هذا الكلام واردف الناظر قائلاً : « اننا نستشير نساءنا ليس لانهن حسنات الشعور والذوق وحسب ، ولكن لاننا نعتمد عليهن ... وقد قيل في النساء ، ان صدورهن تضيق عن استيعاب السر ، وان الهذر دابهن والكلام الفارغ ديدنهن ، وانت تعلمين ايتها الفاضلة ان هذا المقال لايجوز ان يطلق على جميع بنات حواء ؛ فان تاريخنا نحن المغاربة يذكر ان احد سلاطيننا كشف ذات يوم سراً لاحد وزرائهِ وطلب رايه فيه ؛ ثم قال له : « حذار ، حذار ! فان شاعت كلمة واحدة من هذا تاكدت انك خائن ثرثار » . فوعده الوزير بحفظ السر في اعمق طيات قلبه . على انه حالما ذهب الى منزله لم يتمالك ان افشاه لامراته فكتمته تماماً ولم يتمكن السلطان من معرفة ما جرى »

وقال المدرس : « لكيلا نقطع سياق كلامنا الاول علينا ان نلاحظ شيئاً وهو ان البشرية واحدة في كل مكان ، فالمرأة ، ان احبها بعلها اضحت قديرة عليه »

فاستدرك القائد قائلاً : « ولكن الكلام هنا ليس على القدرة التي يستوجبها الحب انما الكلام على الحقوق . فالمرأة شريكة حياة الرجل ، فمن حقوقها ان تشاطره عيشته وتنال منه الحماية والرعاية واللطف فلا يجوز له ان يحملها اشغالاً شاقة ، انما يجب عليه ان يعتبرها اقرب الاقارب ويشملها بحب خالص »

فقلت له : « انتم الاشراف والاكابر ، هكذا تقولون وهكذا تعملون ، واما عامة الشعب فكيف يعاملون المرأة ؟ »

فقال : « ان الشرع والعرف يقضيان بما قلت ، على الكبير والصغير والغني والفقير . لكني اقر لك ان المرأة لاتعطى حقوقها الا في الطبقات العالية من سكان المدن . ومع الاسف الشديد نرى حقوقها عند غيرهم ولاسيما في القرى والارياف مهضومة ؛ فانهم هناك يتخذون المرأة للشغل الشاق والكسب كانها خادمة او دابة . . . . انها تحرث وتفلح وتحمل الاثقال وتنقل الماء وغير ذلك »

فقلت له : « حيث ان المرأة تجد وتكد فلماذا يجفونها ويشبعونها ضرباً واهانة ؟ »

فاجابني المدرس : « وهذا كذلك مما نأسف عليه وننكره اشد الانكار على الرجال القساة ؛ ولكن اني لنا ان نلين قلوباً جلمودية ؟ »

فاردف الناظر قائلاً : « هذه مسألة اخلاقية خصوصية ايتها الفاضلة ؛ وانت لاتنكرين ان في ارقى البلاد رجالاً طغاة تبلغ بهم الشراسة الى ضرب المرأة وجرحها وقتلها ... ولا يزال حتى الآن في ذهني ماقرأه ذات يوم حضرة المدرس في كتاب « لجستاف لوبون » احد علمائكم وهو ان النساء كن يلاقين الاهوال من رجالكم ، وان احد ملوككم العظام كان ذات يوم في خصام مع اختهِ ، فهجم عليها

وجرها من شعر رأسها وضربها ضرباً موجعاً ؛ ولم ينزع الكف الحديدية التي كان لابسها في يده فلطمها بها لطمةً شديدة سحقت ثلاثاً من اسنانها »

قلت : « قد كان هذا في القرن الثامن ونحن اليوم في القرن العشرين في عصر النور »

اجابني المدرس : « اجل وهل ينبثق النور الا من التهذيب؟ فيا ليت التهذيب يعم بلادنا واريافنا فتصلح احوال نسائنا ورجالنا واولادنا اجمعين ... اننا لانزال نصيح بهذا وننادي »

فقلت له : « الصياح والنداء لا يجديانكم النفع المطلوب ؛ فلا تعتمدوا على غيركم في قضاء هذا الامر الحيوي « فما حك جلدكم كظفركم » : فاجمعوا كلمتكم واسخوا بمالكم ، وجدوا في قضيتكم فتنالوا بغيتكم »

يهتمون بالحية

ذكرت مجلة الطبيعية الاميريكية ما موداه :

الفارة الواحدة تقدر ان تضر ١٠ شجرات في السنة باتلافها اصولها وحبها

اما الحية الواحدة فانها تبتلع من نيسان الى تشرين الاول مقدار ١٤٤ فارة اي انها تنقذ ١٤٤٠ شجرة مع بزرها. لهذا السبب لايجوز التجاوز على الحيات وقتل كل ما صودف منها في الحقول سامة كانت او غير سامة .ومن الصعب اقناع جميع الناس بهذا الخصوص فكلما ذكر اسم الحية عنت لهم حادثتها مع سيدتنا حواء

ليلى الاخيلية

(تتمه)

٤ً : عفاف ليلى

بينما كان الحبيبان القديمان مجتمعين ذات يوم ، يتجاذبان اطراف الحديث يذكران ايام الصباء ، ايام تبادل الحب الطاهر والماضي ذكرى تحببه ، اذ بدا من توبة الحميري كلمة ظنت ليلى انه قد خضع فيها لبعض الريبة فبادرته ببيتين بليغين :

وذي حاجةٍ قلنا له لاتبح بها فليس اليها ماحييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي ان نخونه وانت لأخرى صاحب وخليل

حيا الله العفة المثلى ، وحيا الحب النقي ، وحيا الوفاء والاباء. هذان بيتان من عيون الشعر يمثلان صورة مجسمة للطهر ووثوق الذمة. خلدت ذكرك ياليلى بهذين البيتين الصادرين من قلب عرف الحب وعرف حقوق الزوج : اعطيت درساً من دروس الحب العذري لبنات جنسك وكأني بابن الفارض قد عناك اذ قال :

كم بات طوع يدي والوصل يجمعنا في بردتيه النقى لانعرف الدنسا

وقع جواب ليلى على توبة وقوع صاعقة من التبكيت والتوبيخ ولم يقدم على ملاقاتها بعد ذلك التقريع فبعث رجلاً الى حاضرها وعلمه ان يقول :